مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

تعليقات

بعد مرور سنة

نظرة في الحملة الروسية على سوريا

سيباستيان ماير

أكتوبر ٢٠١٦م

في نهاية شهر سبتمبر عام ٢٠١٥م، صعدت روسيا بشكل علني إلى الواجهة كقوةٍ تدخلٍ في سوريا. ومنذ ذلك الحين تمكنت القوات الموالية للأسد من إعادة إنشاء موطئ قدم عسكرية متينة، واستعادة مساحات شاسعة من الأراضي، وأمَّنت ما أصبح الآن منطقة تأثير علوية بلا منازع على طول البحر الأبيض المتوسط، تشمل محافظتي اللاذقية وطرطوس، وتمتد جنوباً على طول الحدود السورية – اللبنانية إلى العاصمة دمشق.

إن السمة الأكثر لفتاً للانتباه في مشاركة روسيا العسكرية تنبع من الاستهجان المتكرر لرعونة تصرفاتها؛ إذ قدمت التحركات الدبلوماسية المتقلبة التي تتصف بالرشاقة وسرعة الخطى، لموسكو مجالاً للمناورة، وخلق وقائع على الأرض؛ مما وضع المحلّلين والقوى الدولية في حيرة حول مقاصد الكرملين على المدى الطويل.

تعددية غير تقليدية لكنها فعالة

ونتيجة لذلك؛ لم تتوافر للمجتمع الدولي لحظة صفاء لوضع استراتيجية للحد من فاعلية التمكين الروسي، ومعالجة حريق إقليمي متزايد في سوريا وخارجها. وقد ساعد الارتباك واسع النطاق حول أهداف روسيا في استمرار دفع الكرملين بشكل منهجي وبطريقة غير منتظمة عمداً؛ للضغط على الساحة الدولية. ولننظر إلى طريقة روسيا غير التقليدية في ممارسة التعددية؛ ففي الماضي القريب شنت القوة الجوية غارات من القاعدة الجوية الإيرانية همدان، وألقت صواريخ على سوريا عبر العراق، بينما كانت تحث بلا مبالاة قوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة على الامتناع عن المزيد من العمل العسكري في سوريا. وفي الوقت ذاته نسقت روسيا إجراءات عدم تضارب مع إسرائيل، واستغلت أجندة الأعمال التركية – الكردية على طول الحدود بين تركيا وسوريا، وسعت إلى التشاور مع السعودية بشأن سياسات الطاقة. وفي غضون ذلك، قررت مؤخراً زيادةً للصواريخ من نوع S-300 المضادة للطائرات في سوريا، وتأمين وضع قاعدتها الجوية ومرافقها في اللاذقية؛ باعتبارها دعامة عسكرية أساسية. ونتيجة لذلك؛ تملك روسيا الآن قوة فريدة تستطيع بواسطتها فرض منطقة حظر جوي طال النقاش حوله بشروط روسية.

استراتيجية نشر الفوضى

هذا النهج القوي يُظهر نفاق الوعود الروسية بأنها فقط تسعى إلى تحقيق استقرار بشأن ما تعتبره القوة الشرعية الوحيدة في سوريا؛ من أجل التوصل إلى حل سياسي للأزمة. وعبرت روسيا مراراً عن انفتاحها لإمكانية التوصل إلى حل سياسي. ومع ذلك، وفي حين تسعى أجزاء كبيرة من المجتمع الدولي إلى إحداث انفراجة سياسية فورية، فقد تمكنت روسيا من فرض آليات لإحباط ذلك.

موسكو تعيد تقويم وموازنة تكتيكاتها دون الأخذ بعين الاعتبار الأسس الضئيلة بالفعل والمتقلبة التي يمكن على أساسها حصول أي اتفاق دبلوماسي قد يظهر في نهاية المطاف. وفي غضون ذلك يعطي تعريف الكرملين والأسد للإرهابيين المحظورين في سوريا حرية مطلقة لإسقاط – كما تشير الأدلة التي تقشعر منها الأبدان في الآونة الأخيرة – قنابل عنقودية غير موجهة وقنابل خارقة للتحصينات، واستخدام أسلحة الفوسفور الأبيض في المناطق المدنية، وعلى الأخص في الأحياء الشرقية المتنازع عليها التي يسيطر عليها الثوار في حلب.

الخطوط الحمراء في الرمال

في ضوء آخر محاولة فاشلة لهدنة أمريكية – روسية في سبتمبر عام ٢٠١٦م، تمكنت روسيا التي كانت متواطئة في فظائع تحتمل تصعيدها إلى مستوى جرائم الحرب، من الهرب من المساءلة بالتظاهر بتدمير مراتع الإرهابيين. وفي هذا السياق شكلت تفاهة (الخطوط الحمراء) التي رسمتها إدارة أوباما في عام ٢٠١٢م، فيما يتعلق باستخدام الأسد للأسلحة الكيماوية، نذيراً لإراقة الدماء الحالية.

وتمكنت روسيا، وحليفها المستفيد منها؛ النظام السوري، من تعلم كيفية التنقل في المشهد الاستراتيجي المحير للحرب الأهلية، ويرجع ذلك –في أقل تقدير– إلى تحويل المبادئ الأساسية للقوانين الإنسانية رأساً على عقب، دون التعرض للعقاب. أضف إلى ذلك التزام تنظيم حزب الله العميق –على الرغم من تحمله فوق طاقته– الوقوف جنباً إلى جنب مع قوات الأسد، وهو أمر لم يتم بحثه كثيراً في الآونة الأخيرة، فضلاً عن تقديم فيلق القدس الإيراني مساعدة قيادية واستخباراتية مركبة. ويبدو من الواضح بشكل متزايد أن عودة الأسد تحمل دليلاً على نهج تنفيذي منسق بدقة من قبل حلفائه التقليديين.

موضوع متكرر من الضاحية في لبنان إلى حلب في سوريا

علاوة على ذلك، يشمل نهج روسيا دروساً مستفادة بالطرق الصعبة، وهي: التوصل إلى تفاهم مع تداعيات ترك مصير ليبيا مع الغرب، وتجربتها في مكافحة تمرد مستعصٍ في الشيشان. ويمكن أيضاً إلقاء الضوء على السبب وراء شروعها في قصف مستمر على سوريا عن طريق استخلاص ما حدث خلال حرب لبنان منذ عشر سنوات، وتحديداً في عام ٢٠٠٦م؛ فخلال تلك الفترة استخدمت حملة جوية إسرائيلية قوة مفرطة غير متكافئة وانتقامية؛ من أجل تحقيق الردع في التعامل مع تنظيم حزب الله. وكانت معادلة الردع –خلافاً لما جرى في غزة– تؤدي –إلى حد كبير– إلى النتائج المطلوبة إلى يومنا هذا. ولكن تم تحقيق ذلك من خلال العقاب الجماعي والتغاضي عن الأضرار الجانبية؛ باعتبار ذلك إحدى الركائز التي دخلت بسخرية إلى اللغة العسكرية باسم (عقيدة الضاحية)، ويجري الآن تطبيقها في سوريا. وسيكون من الخطأ بشكل صارخ، بل من الجنون، النظر إلى الفوضى التي تسببها موسكو بوصفها نتيجة أو أثراً جانبياً للاضطراب الموجود مسبقاً على أرض الواقع؛ إذ هي في الواقع انعكاس لأجندة روسية تجيد إدارة الحرب في بيئة تشغيلية طويلة.

لفهم الأولويات الروسية في سوريا.. ابحث في مكان آخر

إذا نظرنا بشكل أدق، سنجد أن هذه القراءة للسياسة الخارجية والأمنية الروسية لها أصداء عميقة في أماكن أخرى أيضاً. روسيا ترى وتفسر محلياً الاحتواء والردع الأطلسي -عن طريق حلف شمال الأطلسي في جميع أنحاء أوروبا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق- على أنه إكراه مع إبداء ردود فعل تشير إلى أنها تصدر عن دولة عظمى من القرن التاسع عشر؛ مما يكشف أطماعها في أن تصبح هي قوة عظمى. إن ضم شبه جزيرة القرم لأبخازيا بحكم الأمر الواقع، وكذلك أوسيتيا الجنوبية، والتوغل الذي تلاه في دونباس، يعيد إلى الذاكرة عقيدة قيصرية قديمة (الامبراطورية الروسية)، وهي فكرة وجود أرض ناطقة بالروسية في أجزاء من أوكرانيا الحالية. أضف إلى ذلك أحدث إعلان لها عن تحرك صواريخ ذات قدرة نووية في قطاع لينينغراد الروسي، والذي يقع بين دولتي الاتحاد الأوروبي بولندا وليتوانيا، وإشاراتها بالتفوق البحري عبر البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود، وبحر قزوين.

الماضي مجرد مقدمة

إن توجه روسيا لوضع قوتها العسكرية تحت الاختبار يتعدى كونه ما يسميه الغرب ببساطة (التدخل العلني)، والتحريف التاريخي. وعلى العكس من ذلك ترى روسيا أن أعمالها في الخارج نتيجة منطقية لعدم الاستقرار الناجم في حلف شمال الأطلسي، والتدهور المستمر الذي بدأ مع الغارات الجوية في عام ١٩٩٩م ضد حليف روسي وثيق هو جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية. وعلى المنوال ذاته، ومنذ عام ٢٠٠١م، غيّر التدخل العسكري الغربي بشكل جذري ديناميات السلطة في أفغانستان، والعراق، وليبيا، مع كون هذا الأخير ثاني أهم حليف لروسيا في الشرق الأوسط إلى جانب سوريا.

وبالإضافة إلى ذلك، يتجه نظام داخلي مبسط وحالة متجانسة وعميقة عبر المستويات الأمنية والعسكرية لروسيا على نحو يبدو شبيهاً بمركز كلاوسفتزي للتخطيط الجيوسياسي في موسكو. وعلى المستوى الكلي ينطبق هذا على تقويض القواعد القانونية الدولية، والاستخفاف الخطابي، والعدوان الإقليمي. أما على المستوى التكتيكي فيقترن ذلك مع حرب هجينة غير خطية، وهو مصطلح استحدثه مستشار سياسي مقرب من بوتين قبل فترة وجيزة من ضم شبه جزيرة القرم. وإذا نظرنا إلى ذلك بشكل عام، ثبتت فاعلية هذا النهج في السعي إلى تحقيق مكاسب سياسية.

التغلب على الغرب في سوريا: روسيا باقية هنا

إن تصميم روسيا على تصعيد التوتر والحفاظ على العمق الاستراتيجي في الخارج ما هو إلا أداة في حوزتها لاحتواء الامتداد والتقلبات التي تلوح في الأفق في جمهوريات تقطنها أغلبية مسلمة في شمال القوقاز ومحيطها الضعيف في آسيا الوسطى. وفي سوريا، حلت فترات كثيرة من وقف إطلاق النار وذهبت، وليس نادراً، بسبب التلميحات التي يأتي بها الروس، وحملات التضليل التخريبية التي جعلت اكتشاف الوقائع مهمة شاقة. ولكن في نهاية المطاف، ثبت أن سلوك روسيا مناسب -إلى حد كبير- ومصمم بشكل جيد لمهمة طيّ شعار السياسة الخارجية الذي صاغته وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك، كوندوليزا رايس، في عام ٢٠٠٦م، وهو (الدبلوماسية التحويلية)، والذي أدى إلى إعادة تشكيل قوة الوساطة الأمريكية، خصوصاً فيما يتعلق بالشرق الأوسط، على حساب النفوذ الروسي.

أما في سوريا، فتحاول روسيا معالجة تدخل مجموعة واسعة من الجهات الفاعلة الخارجية والإقليمية وغير الحكومية باستخدام تكتيكات كاسحة تستغل نقاط الضعف التي أنشأها تلاشي موثوقية الأنظمة الدولية. ومن وجهة نظر موسكو، فإن التغيير السياسي الساحق يهدد بخطر عودة الأمور إلى الوراء، خصوصاً بعد تحول الربيع العربي إلى شتاء، تاركاً وراءه فراغاً سياسياً، والآن فراغاً قانونياً.

خطة روسيا المتعمّدة لملء هذا الفراغ تنذر بعواقب ومسار متدهور بين واشنطن وموسكو؛ فبعد كل شيء، وحتى بعد انتهاء انتخابات الرئاسة الأمريكية، لن يخشى الكرملين من القصاص القوي لسلوكه. وفي الوقت ذاته، يبقى من غير الواضح إذا ما كانت الإدارة الأمريكية الجديدة ستتبنى سياسة خارجية أكثر حزماً.

وهكذا، مع توجه معظم الاهتمام حالياً إلى تحرر مدينة الموصل في شمال العراق من تنظيم داعش، تقوم موسكو ببطء، ولكن بثبات بتحويل المد نحو طريق مسدود؛ مما يعجل وجود حل عسكري في سوريا أمراً حتمياً. ومن المؤكد أن أي حل، مهما كانت طبيعته، لن يكون قابلاً للتحقيق دون موافقة الكرملين. وقد تكون الحقيقة غير مستساغة بالنسبة إلى كثير من الذين يعارضون روسيا بشكل علني أو ضمني، ولكنه تصور ضروري سيحدد مسار الأحداث في سوريا (حليف روسيا المتعثر حالياً في المنطقة).